الشعر العُماني في القرن العشرين خواص المدونة وسماتها

د. محسن بن حمود الكندي
مدير مركز الدراسات العمانية، جامعة سلطان قابوس، عمان

من خلال استعراضنا لمدونة الشعر وتراجم الشعراء اللذان شُغلنا بهما في دراستنا الأكاديمية للحصول على درجة الدكتوراة - يتضحُ لنا سيطرة نزعتين مهمتين عليهما هما: نزعة المحافظة والتقليد، و نزعة التطوير والتجديد؛ فالأولى كان لها في الأوساط الأدبية روَّاد أكثر، فيما ظلت الثانية محصورة لدى بعض شعراء جيل الوسط المتأثرين بالمدارس الأدبية الحديثة، وظل التياران يسيران جنباً إلى جنبٍ إلى حين بزوغ الاتجاه الجديد في منتصف سبعينيات هذا القرن، ولكن تيار المحافظة وتقليد الأسلاف ظل قويًّا طوال القرن العشرين وهذا ما يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي جعلت هذه النزعة تسودُ بخلاف سواها من النزعات مع أن واقع الشعر العربي في عُمان لا ينفصل عن مجريات الواقع الشعري عامة.

لقد أحاطت الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية بالشاعر العُماني، وجعلته أكثر عناية بنزعته التقليدية التي يمكن إجمال أسبابها في النقاط التالية:

أ - طغيان الثقافة التقليدية المحافظة:

ارتبطت هذه الثقافة بالتعليم بدءًا من أوائل القرن وحتى عام ١٩٧٠م، فقد كانت مراكز التعليم متصلة بالوسط الديني؛ فالمساجد والسبل والمدارس تعتمد على تدريس القرآن مادة أساسية، وإذا هي تعدّته قليلاً فهي لم تتعد المواد المستمدة منه كالفقه والبلاغة والنحو، وكان المنهج الذي تدرّس به هذه المواد يعتمدُ على الحفظ والسَّماع والترديد.

إن هذا المنهج وتلك المواد كانا من العوامل التي أدّت بالشعراء الدارسين في هذه

المدارس إلى صدور رؤيتهم للشعر عن هذه الثقافة التقليدية المحافظة التي قلّ فيها الاهتمام بالأداء الفني للشعر والولوج إلى النظم لسهولة النظم فيه ، ولارتباطه بالعملية التقليدية [١].

وإذا كانت هذه النظرة قد أحكمت سيطرتها على الشعراء في ظل فهمهم للشعر، فإنهم وجدوا في شعر المطارحات والمعارضات والإخوانيات والتقاريظ والأسئلة التعليمية والنزعات الفنية وأشكال هندسة النص منهجا جديدا وأسلوبا يوسّع دائرة اهتماماتهم، ويتيح لهم ضربا من الخروج عن محيط المواد التقليدية، وتصبح المسألة في حسبانهم نوعا من التجديد.

بيد أن هذا الخروج لم يقتصر في بعده الفني على هذا الحد؛ فقد اضطر الشعراء إلى الخروج من وطنهم إلى أوطان بعيدة تمثلت في زنجبار وبعض مناطق الخليج، فوجدوا في هذين المهجرين متنفسا دفعهم إلى مغايرة ما كان سائداً لديهم.

ومع أن ذلك الخروج المكاني كان واضحاً إلا أن شدة التأثر به لم تكن كبيرة، رغم أن زنجبار كانت تعجُّ بالأفكار الإصلاحية، وكانت أصداء الثقافة الجديدة تجد نقاشا ومتابعة من قبل المثقفين عبر الصحافة والجمعيات والمدارس، ويرجع ذلك إلى أن طبيعة مواد التعليم في هذا المهجر لم تكن تختلف عن الطبيعة السائدة في عمان، ولذا صدر الشعراء عن منبع واحد رغم تباين المكان . وكانت وسائل تعبيرهم التي أقاموا عليها تجربتهم الشعرية تنحو منحى الإصلاح الذي اتخذ شعار العودة إلى الماضي انطلاقا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

إن هذه الثقافة التي سادت الشعر في عُمان لاسيَّما عند الجيل الأول لا تختلف بأي حال من الأحوال عن الثقافة السلفية التي عمّت البلاد العربية جميعها، واتخذت من المحافظة أسلوباً، ومن العودة إلى الدين منهجاً ، وكان شعارها لا يصلح آخر هذه الحياة إلا بما صلح به أولها.

لقد تركت الثقافة التقليدية بصماتها في أساليب الكتابة الشعرية، فقد طبعتها بطابع القوة والجزالة، وأصبح القرآن مصدراً هاماً من مصادر التجربة الشعرية على النحو الذي وجدناه في فصل التشكيل الفني من هذه الدراسة.

---

١ ناصر ، محمد (الدكتور) : الشعر الجزائري الحديث ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ٤٠

ب- التمسك بالأدب القديم والنسج على منواله:

يوازي الشعراء العُمانيون أقرانهم الشعراء العرب في عنايتهم بالأدب القديم (٢)، وكان تأثرهم به تلبية لدواع اجتماعية وأخرى دينية، و كان الأدب العربي من أكثر المصادر التي أثرت في الشعر العماني فساعدته على الازدهار وأشاعت في ثناياه عدداً من الرؤى الطريفة والصور المتميزة، و مغزى هذا التأثر يكمن في أمرين:

الأول: اهتمام الشعراء بكل ما يمت إلى التراث بصلة؛ فهم يرون أن الشعر لا يتطور إلا بتطور لغته، ومن ثم فمنبع هذا التطور هو الشعر العربي القديم ممثلا في المعلقات وأمثالها.

الثاني: حالة العزلة الثقافية التي عاشها الشعراء العمانيون جعلتهم يقصرون أنظارهم على الأدب القديم، فجاء إنتاجهم متأثرا إلى أبعد الحدود بالمصدر الذي استقوا منه إبداعهم؛ فأغلب الشعراء درسوا في الجوامع والمساجد ومدارس القرآن، ولم يسعفهم الحظ أن يتلقوا تعليمهم في مدارس نظامية إلا بعد عام ١٩٧٠م.

إن الارتباط بالقديم لم يقتصر على اقتفاء النماذج الشعرية عند الفحول، بل تعداه إلى الخلق والابتكار فيها؛ حيث كان الأدب بفروعه وعلومه المتعددة ضرورة لكل من يريد نظم الشعر والإجادة فيه ، وكانت متطلبات كتابة الشعر مقرونة بحفظ الأراجيز ونظم الشعر التعليمي، والمعرفة بالنحو والصرف والعروض والبلاغة والتاريخ والأمثال والقصص والأخبار مما أسهم في خلق ذائقة شعرية مكنت الشعراء من الارتباط بالقديم وحافظت على الكيان الشعري قويا مزدهراً.

ج- التأثر بمدرسة التجديد في الشعر العربي:

تظهر المدونة العامة للشعر والشعراء، تأثر جيل الوسط بمدراس التجديد التي تأتي مدرسة البعث والإحياء في مقدمتها، فقصائد شوقي وحافظ والبارودي والرصافي والزهاوي، والجواهري و عمر أبو ريشه والشابي والأخطل الصغير، تلقي بظلالها على قصائد هلال بن بدر وعبدالله الخليلي وعبدالله الطائي وهلال السيابي ومحمد رضا المسقطي ومالك بن إبراهيم الكندي وسليمان السّالمي وغصن بن هلال العبري وغيرهم.

غير أن هذه المدرسة تخالف مدرسة الإحياء (العُمانية) التي ظهرت في شعر

٢ - ناصر ، محمد (الدكتور) : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

سعيد بن خلفان الخليلي وأبي وسيم وأبي مسلم . ومن الواضح أن هؤلاء الشعراء قد تجاوزوا هذه العوامل؛ لأن أغلبهم قد تلقى العلم في مدارس شبه نظامية أكثر انفتاحا من سابقاتها، و كانت تصلهم مصادر الشعر العربي من كل مكان، مما أتاح لهم فرصة التفاعل معها بحفظها وتشطيرها وتخميسها وقراءتها بالطريقة العُمانية (طريقة إنشاد الشعر) . ولعل سبب هذا الإعجاب يعود إلى امتلاء هذه القصائد بالمضامين القومية التي تتوق إلى الاستنهاض والثورة، و الوحدة ولم الشمل، وإجلال اللغة وتقديس الدين، وحب التاريخ ، والحلم بالحرية.

إن هذا التأثر لم يكن مقتصرا على الشعر العُماني، ولا مختصا بشعرائه، وإنما هو سمة عامة وجدها الباحثون في دراساتهم لشتى الآداب الإقليمية؛ فالشعراء العرب في كل قطر من الأقطار - ومنذ سطوع مدرسة البعث والإحياء – أخذوا يتأثرون بها؛ لكونها تعالج مضامين واقعهم، وتلامس أذواقهم، وتثير مشاعر العروبة والإسلام فيهم، كما أنها ترسّخ الرصانة الشعرية والإجادة اللغوية والبيان الجميل في تجاربهم[٣] .

د - تنوُّع شخصية الشعراء :

إلى جانب نزعتي التقليد والتجديد المتداخلة مع المؤثرات العامة في التجربة يتضح لنا تنوّع شخصية الشعراء تبعا للمؤثرات الواقعية والنفسية، ولا نعني بهذه المؤثرات تلك التي سبق أن تناولناها في الفصول السابقة « بقدر ما نقصد بها المحيط الخاص بكل شاعر من المنشأ إلى المربى إلى الأسرة إلى الانتماء . وعلى هذا النحو فنحن نجّمل هذا التنوع في شخصية شعراء المدونة كما يلي[٤] :

أولاً: الشاعر القاضي ،وهو من ارتبطت شخصيته بمهنة القضاء الشرعي ؛ وتنقل على إثرها بين المحاكم المختلفة في سائر مناطق السلطنة.

ثانياً: الشاعر الفقيه ،وهو الذي عرف طيلة حياته بالضلوع في التعليم الديني ،وأوكلت إليه مهام الفتوى والاجتهاد والتحقيق، وعادة ما يكون هذا الفقيه صاحب مؤلفات، ومنظومات في الفقه والسير والآداب.

---

٣ ناصر ، محمد (الدكتور) : الشعر الجزائري الحديث ، المرجع السابق ، ص 52 .

٤ نعتمد في توزيعنا للشعراء على هذه الشخصيات على السمة السائدة المعروفة في حياة كل شاعر، مع تقديرنا لحالة التشابك في الشخصية الواحدة؛ فكثير من الشعراء ينتمون إلى شخصيات متعددة يستند جوهرها إلى طبيعة الأعمال التي يقومون بها، والأفكار التي يتبنونها .

ثالثا: الشاعر المؤرخ، هو الذي ألّف في علم التاريخ، وعرف مؤرخاً أكثر منه شاعراً، ويغلب على شعره اتجاه الرصد والتوثيق.

رابعا: الشاعر المعلم، هو الذي امتهن التعليم بفرعيه التقليدي والنظامي، وتخرجت عليه أجيال كثيرة تدين له بفضل ريادة الاكتشاف، وأكثر قصائده تكون في الشعر التعليمي.

خامساً: شاعر البلاط، وهو الذي يسود في شعره غرض المدح السياسي لدرجة أصبح لا يعرف إلا بولائه المطلق لبلاط السلطنة و « البرزات « الإمامة (٥).

سادساً: الشاعر الثائر، وهو الذي ارتبطت شخصيته بالحماسة والاستنهاض ، فكثرت في شعره الدعوة إلى النضال والمطالبة بالتغيير والسعي إلى الإصلاح و أغلب قصائده في الثورة على الاستعمار وأعوانه، ونبذ سياسة الدخيل .

سابعاً: الشاعر المثقف، وهو الذي تظهر قصائده ثقافة موسوعية تتصل بكافة مجالات المعرفة الإنسانية ، ويقوم بتوظيفها في شعره فيما يعرف اصطلاحا « بالتناص « ، وأغلب هذا النمط من الشعراء يكثر لدى الجيل الجديد ممن يكتبون القصيدة « الجديدة «، أو يوّظفون مفردات التاريخ والدين والأعلام رامزين بها إلى معانٍ أكثر بعداً من معناها الأصلي.

ثامنا شاعر القبيلة : وهو الذي حصر شعره في قضايا القبيلة وعاداتها وتقاليدها، ولم يخرج من دائرتها الضيقة إلا نادراً.

إن هذه الشخصيات تظهر بكثرة في مدونة دراستنا، ويمكن إيضاح عددها على النحو التالي :

شخصية الشاعر	الجيل الأول	جيل الوسط	الجيل الجديد	المجموع	النسبة ٪(١)
الشاعر المثقف	-	-	٤٢	٤٢	١١,١
الشاعر المعلم	١٤	١٦	٢١	٥١	١٣,٥
الشاعر القاضي	٧	٢٠	٩	٣٦	٩,٥
الشاعر الوالي	٣	٥	٥	١٣	٣,٤
الشاعر المؤرخ	-	٤	٢	٦	١,٦

٥ البرزات : جمع برزة، وهي المجلس الرسمي الذي يعقده أولو الأمر من القضاة والسادة والشيوخ والرشداء والأعيان في المجتمع العُماني ، وتناقش فيه قضايا ذات صلة بالوضع الاجتماعي .

شاعر البلاط	١	٢	٥	٨	٢,١
شاعر القبيلة	١٣	٩	٤	٢٦	٦,٩
الشاعر الفقيه	٧	١٥	٣	٢٥	٦,٦
الشاعر الثائر	٢	٢	-	٤	١,١
الشاعر المهندس	-	-	٥	٥	١,٣

هـ- تباين انتماء الشعراء جغرافيا:

تظهر المدونة تباين أماكن الشعراء داخل السلطنة وخارجها، و ليس من باب المصادفة – فيما نحسب – أن يتركز هؤلاء الشعراء على مناطق بعينها، وأن تكون مناطق معينة محتوية على شعراء أكثر من غيرها، فالأمر يتعدى الحدود الجغرافية ليتصل بأسباب حضارية وأخرى بيئية، وقبل أن نتناول هذه الأسباب سنقوم بتحليل إحصائية توزيع الشعراء جغرافيا [٦]:

أولا: المناطق التي يكثر فيها الشعراء: وهي: الداخلية (٣١,٥٪) ، مسقط (٢١,٦) ٪ .

ثانياً- المهاجر العُمانية التي يكثر فيها الشعراء : وأهمها (زنجبار) بنسبة (١٤,٤٪).

ثالثاً: المناطق التي يقل فيها عدد الشعراء : وتتمثل في مناطق الساحل العماني: منطقة شمال الشرقية ، ومنطقة شمال الباطنة ، ورأس الحد ، وجعلان والمنطقة الجنوبية .ومنطقة الظاهرة وتصل نسبة الشعراء في هذه المناطق أدنى حد لها ؛ فهي لا تتعدى نسبة ١,٤ ٪ من شعراء المدونة .

أمّا الأسباب التي تحكم هذه الكثرة وتلك القلة، فإننا نقدّمها استنتاجا من الجداول السابقة ؛ فهي وحدها لم تكن تُفجِّر شعراً أو تخلق شاعراً لولا مصادفتها نفوساً ذات حساسية مرهفة تتصل وتتفاعل مع أكثر المؤثرات إثارة ، كما أنها نسبية ، وتختلف من شاعر إلى آخر. وأهم هذه الأسباب ما يلي:

تعتبر المنطقة الداخلية مرتعاً خصباً، وبيئة ساعدت على تجمّع الشعراء؛ لإنها بيئة استقرار ساعدت الإمامة على إذكائها طوال التاريخ من خلال صقل مواهب الشعراء باتخاذ طرق التعليم التقليدي الذي أخلصت له، كما أنها تعدّ من أكثر مناطق السلطنة

٦ انظر تفاصيل إحصائية توزيع الشعراء جغرافيا في الملحق رقم (٦) من أطروحتنا الشعر والشعراء في عمان في القرن العشرين ، الجامعة التونسية ، ٢٠٠٣م .

حيوية ، فنزوى عاصمة الإمامة، ومركزها الروحي، كما أنها بيئة فقه ودين أكثر صرامة من غيرها [٧]، وعندما نقول ذلك فإننا نفرق بين زميلاتها الست، سمائل وبهلا وإزكي وأدم والحمراء وبدبد؛ إذ كان نصيبها من الشعراء أقل منها ، ويرجع ذلك إلى كونها كما يقول الباحث أحمد بن سليمان الكندي : « عاصمة، ولا يخفى حال العواصم ، فإن بيئاتها عادة لا تساعد على الهدوء الذي يسمح للقرائح أن تسبح في عالم الخيال ، فترسم لوحاتها الفنية ، فسكان العواصم غالبا ما يكونون مشغولين بصخب الحياة ومتاعبها ، والاهتمام بالنواحي الاقتصادية والسياسية» [٨] وقد تكون هذه المدن عرضة للحملات العسكرية التي تستهدف تدمير ما هو حضاري وفكري ، وهذا المناخ - في أحايين كثيرة - لا تنمو فيه الشاعرية بخلاف ما تنمو في المدن المستقرة ذات الطبيعة الخلابة من مثل سمائل التي تعدُّ مركزا مستقراً أكثر انفتاحاً و اتصالا بمستجدات العصر، فبُعدها عن مركز الإمامة وقُربها من مسقط مصدر التمدن جذب إليها الشعراء . أمَّا طبيعتها فلها الدور في إلهام الشعراء وصقل مواهبهم ، ويكفي أن نستشهد بقول أحد شعرائها واصفا دور طبيعتها في تنمية موهبته . يقول :

« خرجت وبرفقتي عشرون راكبا من خيرة الرجال ...أمَّا مطايانا فكانت من خيرة الإبل .. خرجنا بها نشق الوادي الخصيب من سمائل، وقد تفجّر بينابيع الّري وعقدت الترع منه للبلاد ، وكان وسطه مفعماً بالماء العذب الذي فضل عن حاجات البلد ، وكانت أخفاف الإبل تقدح الحجر تارة وتطيش بالماء تارة أخرى جامعة بذلك بين ضدين لا يعيشان مجتمعين : الماء والنار، ومنذ ذلك اليوم بدا لي أن أقول الشعر وأنا أنظر إلى الماء المنساب ، وإلى القسم الآخر المتحجر في صحون الأودية ، وقد انعكست به زرقة السماء وخضرة الشجر ولكني كنت مبتدئا ولا أملك الكافي من الآلة لهذه الصناعة .....» [٩].

وفي الإطار نفسه تعّد مناطق الجنوبية والباطنة وجنوب الشرقية أقل المناطق اهتماما بالشعر والشعراء، لكونها مناطق طغى فيها الأدب الشعبي وزاد من شدة تأثيره المهن والحرف التي تستوجب أسفارا ورحلات تجارية .

---

٧ حول مكانة نزوى التاريخية أحيل إلى البحث الذي قدّمه الشيخ أحمد بن سعود السيابي ، وشارك به في ندوة « نزوى عبر التاريخ « ونشر في حصاد الندوة ، وزارة التراث القومي والثقافة ، ط1 ، 2001 ، ص 70 وما بعدها

٨ - الكندي ، أحمد بن سليمان : الدور الثقافي لأعلام نزوى ، بحث منشور في حصاد ندوة " نزوى عبر التاريخ ط١ ، ٢٠٠١ ، ص ١٣٦ .

٩ - ديوان " وحي العبقرية " ط1 ، وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨١، المقدمة ص ٨ .

و- ظهور الأسرة الشعرية:

يتبيّن لنا من خلال مدونة الشعر العُماني في القرن العشرين أن أربعة وعشرين ومائة شاعراً يشكّلون نسبة٣٣,٩ ٪ يرتبطون بأسر يتسلسل فيها الشعر أبا عن جد ، وأحيانا يصل التسلسل إلى أربعة أجيال متتالية دون انقطاع ، وعندما نقول بتسلسل الشعر لا نؤمن بفكرة وراثته ، وإنما نقدّم ظاهرة بدت لنا عندما استقرأنا أسماء الشعراء وأنسابهم ، و قصارى ما نقوله فيها أنها عصارة بيئة ثقافية وتعليمية اعتمل تأثيرها على الأجيال المختلفة ، إذ لعب التعليم التقليدي دورا كبيرا في إذكائها ، خاصة عندما يكون الجد أو الأب معلما فيطلب من أبنائه أو أحفاده أن ينظموا له سؤالا في الفقه أو تقريظا لكتاب أو تأريخا لمناسبة ، وكل ذلك تنمية لمواهبهم الشعرية .

وتتبدى هذه الظاهرة في شكلين من العلاقة هما:

أ – العلاقات الأسرية المباشرة: وهي التي يرتبط الشعراء فيها عبر الأجيال الثلاثة بعلاقات أسرية متواترة تبدأ من الجد فالأب فالأبناء فالأحفاد. ويكون الشعر متواصلا مع هذه الحلقات دون انقطاع.

ب- العلاقات الأسرية غير المباشرة : وهي التي تنبتر فيها بعض الحلقات الأسرية ، فينقطع الشعر عن جيل لفترة قصيرة ، لكنه سرعان ما يعود في الجيل الذي يليه وقد تحولت العلاقة بينهما من الأبوة والبنوة إلى الأخوة أو الخؤولة أو قرابة أبناء العم و أبناء الخال أو الجد من الأم.

ز- ظاهرة هجرة الشعراء :

تظهر لنا مدونة دراستنا ظاهرة الهجرة على أنواع ثلاثة :

النوع الأول : الهجرة الدائمة : وهي التي تمت إلى شرق أفريقيا في بداية القرن العشرين وجذورها تمتد إلى القرن الأول الميلادي [١٠]، وكانت بدوافع حضارية ، وقد بلغ الشعراء الذين عاشوا في المهاجر الأفريقية ٣٩ شاعرا أغلبهم من شعراء الجيلين الأول والوسط .

النوع الثاني : الهجرة شبه الدائمة : وهي على نمطين : الأولى داخلية بين مدن عُمان المختلفة ولاسيما العواصم والمراكز الإدارية ، واحتوت نزوى (عاصمة الإمامة على ٧٥٪

١٠ - مجموعة باحثين : عُمان في التاريخ ، ط1 ، إصدار وزارة الإعلام ، سلطنة عُمان ، 1995 ، ص ٤١٢ .

من هجرة شعراء الجيلين الأول والوسط ، بينما استقطبت مسقط عاصمة السلطنة على نسبة ٦٢ ٪ من شعراء الجيل الجديد .

والثانية خارجية : وهي التي جرت بين عُمان و دول الخليج العربي المجاورة ؛ وقد فرضتها الظروف السياسية والاجتماعية وأشهر من قام بها عبدالله الطائي ، ومحمد بن عبدالله السالمي ،ومحمد بن سعيد المخلدي وحمد بن عيسى الطائي وحمد بن مبارك المعشري وعباس العصفور ومحمد رضا المسقطي .

النوع الثالث : الهجرة المؤقتة : وهي التي كانت إمَّا بشكل قسري كما هي حال الشاعرين عيسى بن صالح الطيواني ،وأبي سلام الكندي - اللذيّن نفاهما الاستعمار الإنجليزي إلى الهند. أو عن رغبة وطواعية كالهجرات التي تمت إلى مصر والمغرب عام ١٩٩٢، وقام بها بصورة جماعية عدد من شعراء الجيل الجديد .

ح- تفاوت حجم القصائد بين الطول والقصر :

لقد أفضى بنا النظر في مدونة الشعر والشعراء إلى الوقوف على ظاهرة تفاوت حجم القصائد وتباينها بين الطول والقصر ، وعندما نقدم هذه الظاهرة فإننا نؤكد على وجودها في الشعر العربي قديما وحديثا ؛ فقد أشار إليها ابن رشيق في العمدة نقلا عن الخليل بن أحمد الفراهيدي حين قال : يطول الكلام ويكثر ويوجز ويختصر ليحفظ [١١] ، وعلى ذلك ففي مقدور الشعراء إتيان أي نوع منهما ، فمن قدر على القصائد الطوال فهو قادر بلا ريب على المقطعات ، والحال نفسها تنطبق على الأبيات ، فمن استطاع نظم الأبيات القليلة مع إبداع وتميز ، فهو مستطيع الأبيات الكثيرة ، فالشاعر إذا قطع ورجّز فهو الكامل على حد قول ابن رشيق[١٢].

إن هذه الظاهرة تتضح لنا بجلاء حين نعود إلى المدونة لنكتشف أن قرابة سدس عدد القصائد (أي أكثر من سبعمائة وخمس وسبعين قصيدة) يبلغ متوسط أبياتها أكثر من ستين بيتا ، والباقي يتراوح عددها بين عشرين بيتا وخمسة أبيات . فما أسباب هذا التباين ؟

إننا أمام عدة تفسيرات لها ، بعضها يعود إلى المدونة نفسها والبعض الآخر يعود إلى

---

١١ ابن رشيق : العمدة ، تحقيق محي الدين عبد المجيد، ط١، د.م، القاهرة، د.ت: ١ / ١٦١ (باب القطع والطوال).

١٢ المصدر نفسه ص 164 .

طبيعة مصادر الشعر وكثير منها ترجع إلى طبيعة الشعراء أنفسهم .

فالمدونة الرئيسة زمانها قرن كامل، وطبيعي أن يكون فيها هذا التفاوت خاصة أنها تضم قرابة مائتي شاعر . أمّا طبيعة مصادر الشعر فكما عرفنا سلفا؛ بأننا جمعنا هذا الشعر من مصادر مختلفة أهمها كتب التاريخ والفقه والتراجم والسير ومن مصادر أخرى شفوية، ومن الطبيعي أن يكون أصحاب هذه المصادر قد قصّروا واختصروا وأحيانا أطالوا هذه القصائد تبعاً لحاجة مؤلفاتهم المختصة وطبائعهم النفسية .

إن اتهامنا أصحاب هذه المصادر ببخس الشعراء حقوقهم وغض الطرف عن أشعارهم الكثيرة لا يعني أبدا أننا نقصد القول: إن كل مقطوعة من الشعر العماني هي في الأصل قصيدة مطولة شذبّت وبترت ، فلعل الكثير منه جاء فعلا أبياتا قليلة ؛ لأن أصحابه في الأساس مقلّون ، أو لأن مقامات القول والإنشاد كانت تدعو إلى التقصير لا إلى التطويل ؛ فالتقصير أولج في المسامع وأجود في المحافل « على حد قول ابن رشيق ١٣

أمّا ما يعود إلى طبيعة الشعراء ، فمرده إلى أن الواحد منهم قد يوجز ويقصر في غرض بعينه ويطيل ويسهب في غرض آخر ، ولم نر شاعرا قط ضبط عدد أبيات قصيدته قبل نظمها ، وإنما طبيعة المضمون الشعري ، وحضور البديهة عند أكثرهم أسباب للإطالة و التقصير .

إن وجود هذه الظاهرة في مدونة الشعر العماني لا يعني كونها مختصة في غرض بعينه ، فمن غير الجائز أن نعتبر أغراضا بعينها لا تصلح فيها إلا المقطوعات وأخرى لا تصلح فيها إلا المطولات ، وإذا أكدنا ذلك فإننا ننفي ارتباط الظاهرة بالغرض . ونحن إذ نقدّمها هنا ، فإنما نقدّم ظاهرة شكلية بدت لنا معالمها في مدونة دراستنا ، وأمثلتها كثيرة؛ فمنها مطولات الشعراء الفقهاء و القضاة و المؤرخين الذين ينظمون قصائد الأدعية و التوسليات والإلهيات ، ووصف الرحلات والأراجيز التي يصل عدد أبياتها آلاف الأبيات.

وفيما يتعلق بالمقطوعات فنماذجها كثيرة أيضاً ؛ نلتقى ببعضها في شعر النقوش، وشعر الأحاجي و الألغاز،وشعر الإخوانيات والشعر التعليمي ، والتأريخ بالشعر و التقاريظ ، وبعض قصائد الهجاء والعتاب التي غالبا ما تكون مخمسّة . أمّا كتّابها فهم من جيلي الوسط والجديد .

---

١٣ - المصدر نفسه ١/ ١٦٢ .

ط- ثنائية التعبير الشعري :

تعتبر ثنائية التعبير الشعري محصلة حتمية ونتيجة فعلية للنقلة الحضارية التي عاشها الشعراء في المجتمع الجديد (مرحلة ما بعد النفط) وما ترتب عليها من تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية أسهمت في خلق ظروف نفسية أخذت تؤثر في طبيعة الشعر ، ونجم عنها أن الجيل القديم أتيح له أن يعيش المرحلة الحديثة دون أن يكون قد كيّف نفسه لتقبلها بطريقة طبيعية ، ومن ثم لابدّ له أن يظل وفيا لتقاليده التي ظلت تعيش في أعماقه ، وتفرض عليه سلطانها ، حتى وهو يمارس الحياة الجديدة في أشكالها المتطورة . من هنا فإننا نلاحظ أن الجيل القديم من الشعراء يعيش جنبا إلى جنب مع الجيل الجديد .

وقد انعكس هذا الموقف النفسي[١٤] والحضاري المزدوج على الفن الشعري ، بحيث نستطيع أن نقع بين الفينة والأخرى على عدد من الشعراء الذين عاصروا هاتين المرحلتين، وحافظوا على عمود الشعر ؛ بمعنى أنهم تمسكوا بالشكل الشعري القديم و نسجوا على أساليبه ، وإن كانوا قد حققوا قدرا مهما من التطور الفني الذي يتمثل في الأحاسيس الوجدانية الخالصة ، مما يجعل مرحلتهم مرحلة انتقالية مهّدت السبيل للجيل الجديد الذي حقق تطورا كبيرا باعد بين هذا الشعر وبين أسسه القديمة المتوارثة ، ولعل أقرب مثال على ذلك الشاعر عبدالله الخليلي الذي ساير جمهور الشعراء بديوانه « على ركاب الجمهور « بعد أن كان مخلصا لأسلافه الشعراء زهاء سبعين عاما .

ي- بروز ظاهرة إنشاد الشعر دون سابق روية :

تظهر مدونة دراستنا للشعر العُماني في القرن العشرين هذه الظاهرة؛ وفيها نجد قصائد يدلُّ جوهرها على أن الشعراء العمانيين جرّبوا أصعب أنواع الشعر صنعا ؛ وهو الشعر الذي « يكون انهمارا وتدفقا ، ولا يتوقف فيه قائله متعللا بقافية ولا بحر « [١٥] فالشاعر بحضور بديهته وقوة طبعه وغزارة مادته لا تغرب عنه الكلمات، ولا تعوزه

---

١٤ نقصد بالموقف النفسي : الصراع النفسي الذي ترجع أسبابه إلى وحدة النشأة ، واختلاف النظرة إلى الماضي ؛ إذ لم تكن لهم نفس الصلة التي ربطت آباءهم وأجدادهم به ؛ ولذا فقد أخذوا يحسون في نفوسهم بشيء من التناقض الذي يعود في حقيقة الأمر إلى الحيرة بين إيثار الماضي بكل ما يحمل من قيم ، وبين الحاضر بكل ما فيه من رؤى ؛ وهي حيرة جعلتهم ينكرون كثيرا من مظاهر الحياة القديمة، ودفعت بهم إلى الإحساس العميق بالغربة ، مما ولد لديهم مواجهة مع الواقع بكل أشكاله وقيمه الجديدة .

١٥ ابن رشيق : العمدة ١ / ١٦٧

الأوزان والقوافي .

ولقد بيّنت المدونة بعض شعرائها وقد نظم الواحد منهم البيت تلوى الآخر، والمقطوعة تلوى الأخرى دون انقطاع، تحدوهم في ذلك خاصية الارتجال، وأمثلتها تظهر عند أبي مسلم البهلاني وسيف بن سالم المسكري و أبي الصوفي و هلال بن بدر؛ ومحمد بن عيسى، ومحمد بن سيف السعدي حينما كانوا ينشدون في المناسبات الاجتماعية والسياسية .

ورغم شيوع هذه الظاهرة عند الأجيال الثلاثة؛ فهي بالتأكيد متباينة الجودة والقيمة، ولا تهمنا كثيرا وسائل الشعراء فيها، بقدر ما يهمنا معرفة طرائق التعبير عندهم ومدى أخذهم بسنن الأقدمين ، وإسهامهم في تطور الأدب العربي .

كما إننا لم نعد الأبيات المفردة التي استشهد بها أصحاب المختارات وكتب التراجم والسير شعرا منسجما مع هذه الظاهرة ؛ لأنه مقتطف من قصائد مطوّلة ، واقتصرنا على الشعر الذي ثبت لنا أنه ممثل لها ، وذلك بشهادة الرواة والقراء والشعراء الذين التقينا بهم ، وأحيانا اعتمدنا على الأخبار والسير والنوادر التي أوردتها كتب التاريخ عن الشعراء .

ك-ظهور ظاهرة إثبات البراعة في النظم ، وأمثلتها تقودنا إلى بعض النزعات الفنية التي عرضنا لها سابقا من مثل الشعر المشجّر، أو الشعر المحتوي على أبيات ترتد أعجازها على صدورها، والشعر المنتهي في قافيته بكلمة واحدة ، ونشير هنا إلى الشعر الذي تكون حروفه غير منقوطة وكذلك إلى والشعر الذي تأتى أبياته مترتبة على نسق الحروف الهجائية، ولاشك أن هذه الظاهرة تؤدي إلى حالة من الصنعة والتكلف والضعف، وتغييب الفن الشعري.

ل- كثرة القصائد المنسوبة:

نقصد بالقصائد المنسوبة تلك التي نسبت إلى أصحاب الدواوين وهي ليست لهم، وقد تم ذلك بشكل عفوي بفعل الرواية الشفوية التي تداخل فيها الشعر دون مبرر يذكر، وأسبابها نلخصها في التالي :

- أخطاء الرواة ، و المحققين والنّساخ وجامعي الشعر .
- طبيعة الشعر التعليمي الذي يستلزم وضع قصيدة السؤال التعليمي بجانب قصيدة

الجواب الذي يكون من نظم شاعر آخر.

- طبيعة شعر المباسطات الذي يأتي أحيانا سؤاله مصحوبا برده دون الإشارة إليه، مما يحدث خلطا بينهما.
- طبيعة بعض قصائد شعر الهجاء الذي يكون المحقق فيها محّملا بمعرفة رد المهجو، فيضعه بجانب قصيدة الهجاء أيضا .
- كثرة المنظومات الشعرية :

تكشف لنا المدونة عن كثرة المنظومات الشعرية؛ إذ يبلغ ما جمعناه فيها ست وخمسون ومائتين منظومة مختلفة في الطول والقصر. وتكثر هذه المنظومات عند أغلب شعراء الجيلين الأول والوسط؛ ومردها في اعتقادنا إلى النظام التعليمي قبل عام ١٩٧٠م؛ فقد كانت المراكز التعليمية تولي عنايتها بالشعر فنشأ في أحضانها رواته وحفاظه، وارتبط قول الشعر بطلاب المساجد والجوامع يتنافسون في نظمه وإنشاده، بصرف النظر عن الموهبة والإجادة، ولعله كان في نظرهم علامة فارقة على التفوق في درجات العلوم والثقافة. و اصطبغ بنوعية الثقافة التي كانت تزاول في هذه المراكز؛ وهي ثقافة تدور في فلك العلوم الشرعية واللغوية والبلاغية، حيث راح العلماء يتبارون في طول نفسها ، واشتهر غير واحد منهم بمنظومة عرف بها تتصدر ترجمته في كل كتاب[١٦] وهو ما يمكن أن نعتبره امتدادا للمفهوم الذي ساد عصر الضعف مما لا يعد من الشعر بأي حال من الأحوال.

ولم يقتصر هذا الضعف على جانب المضمون، وإنما شمل جانب الشكل، فقد أدى تأثر الشعراء بالثقافة الفقهية إلى تجريد الشعر من كل الملامح الجمالية ، و لم يبق له من عناصر القصيدة غير أجراس التفعيلة . أمّا لغته فقد سادتها مصطلحات علوم الآلة والفقه ، فقد كانوا يكتبون وهم منغمسون فيها، غير مفرقين بينها وبين لغة الشعر[١٧].

ويمكن أن نضيف إلى عوامل هذه الكثرة قصر نظرة بعض الفقهاء والقضاة إلى الشع؛إذ كان الشعر في تقدير بعضهم من لهو الحديث الذي يلهي عن ذكر الله وأن العلم الصحيح هو علم الشريعة وحده . ومن ثم نشأت في المقابل ظاهرة كثرة المنظومات الدينية التي تتخذ لونا واحدا هو مدح الرسول وآله والتغني بمآثرهم ، والتوسُّل بأسماء

١٦ انظر أمثلة ذلك في ملحق المنظومات الشعرية في كتابنا " الشعر العُماني في القرن العشرين .

١٧ على نحو ما نجد في بعض القصائد التي اشتقت مسمياتها من " البردة " أو " الهمزية «

الله الحسنى إضافة إلى الموضوعات التي لا تخرج عن نطاق شعر التصوف .وقد سمّاها الشعراء العمانيون بالسلوكيات.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

١. ابن رشيق: العمدة، تحقيق محي الدين عبد المجيد، ط١، د.م، القاهرة، د.ت .

٢. الخليلي ، عبدالله بن علي (الشيخ) : ديوان « وحي العبقرية « ط١ ، وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٩٨١

ثانياً - المراجع

٣. الكندي ، أحمد بن سليمان : الدور الثقافي لأعلام نزوى ، بحث منشور في حصاد ندوة « نزوى عبر التاريخ ط١ ، ٢٠٠١

٤. الكندي ، محسن بن حمود : الشعر العُماني في القرن العشرين، ط١ ، دار الينابيع ، دمشق ، ٢٠٠٧.

٥. مجموعة باحثين : عُمان في التاريخ ، ط١ ، إصدار وزارة الإعلام ، سلطنة عُمان ، ١٩٩٥

٦. ناصر ، محمد (الدكتور) : الشعر الجزائري الحديث ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٥.